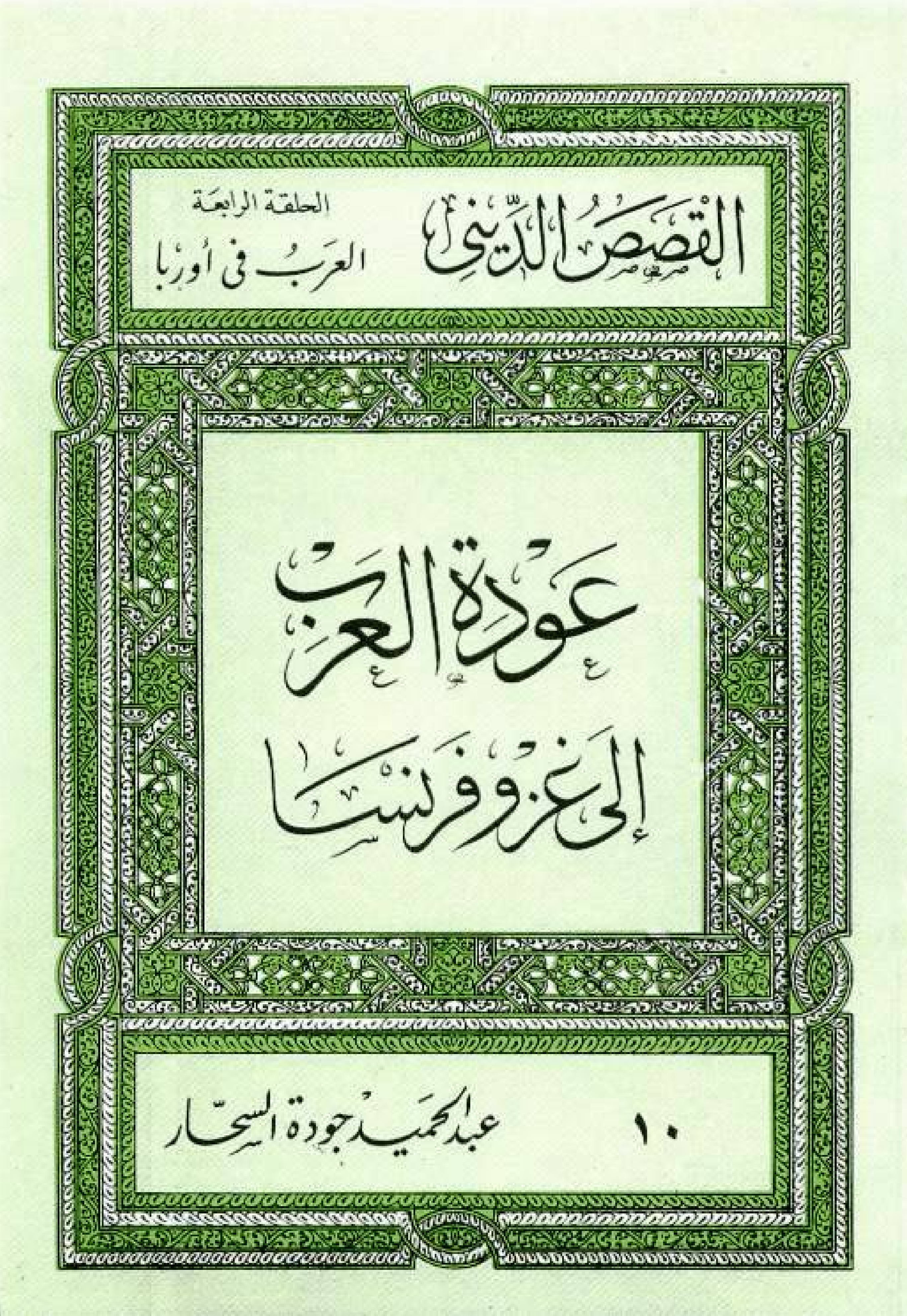


القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
عودة العرب
إلى غزو فرنسا
١٠
عبد الحميد جودة السحار

١

ماتَ عبدُ الرَّحمنِ الدّاخل ، ذلـك الرجلُ الطويـل النّحيلُ الأعور ، الّذى أَسَّس بعزيمتِـه مُلكا عريضـا لبنـى أُميّـة فـى الأندلُس ، بعـد أن زالَ مُلكُهـم مـن المشرِق . واستخلفَ عبدُ الرَّحمن ابنَـه هِشامًا مـن بعدِه ؛ وكان عبدُ الرَّحمنِ كثيرا ما يسألُ عـن ابنيْـه : سـليمانَ وهِشَام ، فيُذكَرُ لـه أنَّ هِشـامًا إذا حضَـر مجلسًا امتلأَ ذلك المجلسُ أدبًا وتاريخًا وذِكـرًا لأمـورِ الحـرب ومواقِف الأبطـال ، وإذا حضـر سـليمان مجلِسـا ، امتلأَ سُخفا وهذَيانـا ، فيكبُر هِشـامُ فـى

عينيْه ، بمقدارِ ما يصغُر سليمان .

كان سليمانُ أكبرَ أبنائِه ، وكان يُحبُّ له الرشاد .

ولكن سليمانَ كان فارغا ، لا يميلُ إلاّ للّهو ، ولا يُحبُّ مجالسَ الأدب .

قال عبدُ الرّحمنِ لهشامٍ يوما :

– لمنْ هذا الشّعر ؟

وتعْرِف فيه من أبيه شمائلا ... ومن خاله ومن يزيدَ ومن حُجُرْ

سماحَةَ ذا مع برِّ ذا ووفاءِ ذا ... ونائل ذا إذا صحا وإذا سَكِرْ

فقال هشام :

– ياسيِّدى هو لامرىء القيس ، ملكِ كِندة ، وكأنّه قاله فى الأمير – أعزّه اللّه .

فضمَّه أبوهُ الأميرُ فرِحا ، وأمرَ له بإحسانٍ كثير .

وقال لسليمانَ على انفراد :

– لمنْ هذا الشعر ؟

وأنشدَه البيتين .

فقال سُليمانُ في زِراية :

ـ لأحدِ أَجلافِ العرب ، أما لى شغلٌ غيرُ حفظِ أقوالِ بعضِ الأعرابِ ؟!

فأطرقَ عبدُ الرَّحمن ، وراح يرقُب ولَديه ، فأيقَنَ أنَّ هِشامًا أفضلُ للإِمارةِ من سليمان ، فأوصى له بالإمارةِ بعدَه .

٢

صار هِشامٌ أميرَ الأندلس ، فما كان حُكّامُ الأندلُس يتلقّبون بأميرِ المؤمنينَ في ذلك الوقت ؛ لأنَّ الخليفةَ العبّاسِيَّ ، المتربِّعَ في كرسيِّ الخِلافة

ببغداد ، كـان أميرَ المؤمنـين ، وكـان يُخْطَـب باسمِـه على المنابِر .

كان هشامٌ أبيضَ أشهب ، مُشـرَبًا بحُمـرة . بعينيه حوَل ، عـاقلاً حازمًـا ذا رأيٍ سـديد ، مُحبًّـا لأهـلِ الخيرِ والصَّلاح ، راغبًا فى الجهادِ . اتَّبع سُنَّةَ العـدلِ فى رعيَّتِـه فأحَبَّتـه ، وراح يتّبـع فـى سياسـةِ مُلكِـه ، سياسةَ عمـرَ بـنِ عبـد العزيـز ، فكـان يبـثُّ العيونَ والأرصادَ بينَ القُرَى والأمصار ، ليُخبروه بمتجدِّداتِ الأحوال ، حتّى يقومَ بما يجبُ لها .

وجد أولَ مـا اسـتولى علـى المُلـك ، أنَّ الفتَـنَ منتشـرةٌ فـى البـلاد ، وأنَّ عصبيَّـةَ الجاهليـةِ الأولى ، لا زالتْ تُسيطِر على المجتمعِ الإسلاميِّ فى الأندلس ، فالـبربرُ فـى عـداوةٍ مـع العـرب ، والعـربُ أنفسُـهم

منقسمونَ إلى يمانيّينَ ومُضريِّين ، والقلوبُ متنافرة ، فعزمَ على أن يؤلِّفَ القلوبَ بالجهاد ، وأن يُعيدَ إلى مملكتِه ما نقص منها من غاراتِ ببين وشارْلمان .

وذاع بين العامّةِ أن المُسلمينَ لا يقدِرونَ إلاّ على قِتَالِ بعضِهم بعضا ، وأفتَى بعضُ الفقهاءِ بأنّه لا يجبُ دفعُ الخرَاجِ لأمراءَ لا يعرفون أن يُقاتلوا إلاّ أمّةَ محمد ،

فلم يُغضِبْ ذلك هِشاما ، بل وجدَ فيه خدمةً لأغراضِه ، فأعلنَ الجهاد ، وأمرَ النّاسَ أن ينفِروا إلى جبالِ البيرانيه ، ليستَعيدوا الأراضيَ الّتي خلّصها منهم ملوكُ فرنسا .

وقرِىءَ منشورُ الأميرِ بالدَّعوةِ إلى الجهاد ، وتحبيبِ النّاسِ فيه فى الجوامع ، فثارتْ حميَّةُ النّاس ، وانطلقوا إلى الجهاد ، وقد طُويت العداوات ، الّتي

كـانوا يَكنّونَهـا بعضُهـم لبعـضٍ فـى صدورِهـم . واجتمع المُجاهدون ، وكان عددُهم كبيرا ، ولكنّه لم يبلغْ مثلَ الأعـدادِ الكبيرة ، التـى كـانت تنفِرُ أيامَ الغـزواتِ الأولَـى ، لأوّلِ الفتـح ، فقـد انقطعـتِ الأندلـس عـن العـالَمِ الإسلامىّ الخـارجى ، ولم يعـدْ راغبو الجهادِ من الشّامِ أو مصرَ أو المغرِب ، بقادرينَ على أن يَنْفِروا مع إخوانِهم المجاهدينَ فى الأندلـس ، لنُصرةِ دينِ اللّه ، وإعلاءِ كلمته .

٣

انطلق الجيشُ الإسلامىُّ بقيادةِ الوزيـرِ عبـد الملـك ابن عبدِ الواحدِ بـن مُغِيـث ، إلى كتالونيـا ، لينقـضَّ منها على فرنسا ، ويجتاحَ أراضيها .

دخلَ العربُ فرنسا ، سنة ٧٩٣ م ـ ١٧٧ هـ ، وكانت جنودُ أكتيانيةَ غازيةً فى إيطاليا ، بقيادةِ لويسِ ابنِ شارلمان ؛ فانطلقَ المسلمونَ إلى أُربونة ، وفتحوها ، وصالحوا أَهلَها على أن ينقُلوا التُّرابَ من سورِ أُربونة ، إلى باب قصرِ الأميرِ بقرطبة ، ليُتمَّ منه مسجدَ قُرطبة ، الّذى بدأ أبوهُ فى بنائِه ، فقد كان الأمراءُ يفخرُونَ بأنَّ المساجدَ إنَّما بُنيتْ من الجِهاد .

وزحفَ المُسلمونَ إلى قرشونة ، فاستنفرَ غليوم ، وكيلُ لويسَ بنِ شارلمان أثناءَ غيابه ، أمراءَ المملكةِ وفرسانَها ، فأقبلَ المسيحيّونَ يحملونَ سِلاحَهم من كل حدبٍ وصوْب ، ليُدافعوا عن فرنسا ، وعن دينِهم ، المسلمينَ الّذين جاءوا يحمِلونَ رسالةً جديدة .

والتقى الجمعانِ على ضفافِ نهرِ « أوربير » ، بين قرقشونةَ وأُربونة ؛ ودارت معركةٌ رهيبة ، استبسل فيها الكونت غَليوم ، ولكن ذهبَ استبسالُه سُدىً ، فقد انتصرَ المسلمون ، وتقهقرَ الفَرنسيُّون منهزمين ، وغنِم المسلمونَ غنائمَ لا تُحصى .

وسقط أحدُ قوادِ المسلمينَ صريعًا فى هذه المعركة ، مما جعل المسلمين يكتفونَ بهذا النّصر ، وبما وقع فى أيديهم من سَبْى ، ولم يقتفوا أثر المنهزمين ، ليقضوا عليهم .

٤

وانتشرتْ أنباءُ هذا الانتصار ، فخرج النّاسُ لاستقبالِ الجيشِ المظفّر ، فرحينَ مسرورين ، فقد طال عهدُ النّاسِ بالنّصر ، منذ تلك الانتصاراتِ الأولى ، الّتى أحرزها طارقٌ وموسى ، وصناديد المسلمين .

وفرِح هشامٌ بذلك الفَتْح ، وباندحارِ جيشِ فرنسا أمام جيوشِه ، فسجدَ للّه شكرا . وأصابَ خُمسَ الغنائم ، فبلغَ خمسةً وأربعينَ ألفَ مثقالٍ من الذّهب ، راح يُتم به جامعَ قُرْطبة ، الّذى كان أبوه قد شرع فى بنائِه .

كان عبدُ الرَّحمنِ الدّاخلُ بدأ جامعَ قُرْطُبة ، من غنائمِ الحروب ، فزادَ ذلك فى حُرمةِ الجامع فى نظرِ المسلمين . فلمّا بنى هِشامٌ القسمَ الجديدَ من الجامع ، وجدَ المسلمينَ لا يُصلّونَ إلا فى القسمِ القديم ، فسألَ عن السَّبب ؟ فقيل له :

ـ لأن هذا القِسمَ بُنى من غنائِمِ الجهاد .

فقال هِشام :

ـ والقسم الجديدُ بُنىَ من غنائِم الجهاد أيضا .

٥

وراحَ هِشامٌ يهتمُّ بتعميرِ الأندلس ، فجدّد قنطرةَ قُرطُبة ، الّتى كانت مضرِبَ الأمثالِ فى الرَّوعةِ والهندسة ، وكان قد بناها السَّمحُ بنُ مالك ، عاملُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ على الأندلس .

وأحكم هشامٌ بناءَها ، وقال يوما لأحدِ وزرائه :

ــ ما يقولُ أهلُ قرطبةَ عن القنطرة ؟

قال الوزير : « يقولون ما بناها الأميرُ إلاّ ليَمضىَ عليها إلى صيدِه وقَنْصه » .

كان هِشامٌ زاهدا ، ورِعًا تقيًا ، فساءَه ذلك ، وأقسمَ ألا يَسْلُك عليها . ووفّى بما حَلَفَ عليه ،

فلم يمرَّ عليها بَعْد .

وتُوفِّيَ رجلٌ في عهدِه ، وكان قد وصَّى أن يُفكَّ أسيرٌ من المسلمينَ من تركتِه . فطلب ذلك ، فلم يوجدْ في دار الأعداءِ أسيرٌ مسلمٌ يُفْتَدَى ، لقوَّةِ المسلمين ، وضعفِ أعدائهم .

٦

استتبَّ الأمرُ لِهشامٍ وعلا ذكرُه ، وعَهِد بالأمرِ من بعدِه إلى ابنِه الحكَم . ولم تقرَّ عينُه ، فقد كان يخشى ثورةَ أخويه سليمانَ وعبدِ الرّحمن بابنه . إنَّ سليمان أظهرَ عليه الخِلافَ بطُليطلة ، يومَ تولّى الأمر ؛ ولحِق به أخوه عبدُ الرّحمن ، فحاربَه وظَفِر به ، حتى دَخل في طاعتِه . ولكنّه ما لبِثَ أن عادَ إلى خلافِه ، فحاصره بتدْمِير . فطلب سليمانُ من هشامٍ العبورَ إلى عُدْوةِ البربرِ بأهلِه وولدِه ، فأجازَه وأعطاهُ مالاً جزيلا ، وأقامَ بعُدْوَةِ المغرب . فما يُدريه إذا مات وأصبحَ الأمرُ للحكم ، أن يلتزِمَ سُليمانُ الطّاعة ،

ولايشورَ على ابنه ؟ كانت هذه الأفكارُ تطوف برأسِه ، ولكنّه ما كان بقادرٍ على أن يفعلَ شيئا .

كان هشامٌ قد بعث في استدعاءِ المُنجِّمِ الضَّبِّيّ ، من وطنِه : الجزيرةِ الخضراءِ ، إلى قرطبة ؛ وكان ذلك في أوّل ولايتِه ، فلما أتاهُ خلا به ، وقال له :

ـ يا ضَبِّيّ ! لستُ أشكُّ أنه قد عَنَاك من أمْرِنا ، إذ بلغَك ما لم نَدَعْ تحديدَ النّظرِ فيه ، فأنْشُدُك اللّهَ ألا ما نبّأتنا بما ظهر لك فيه .

واعتذرَ المنجّمُ بأنّه لم يرصُدْ نجمَ الأمير ، فطلب منه أن يفعل ؛ ثم أحضره بعد أيّام ، فقال له :

ـ إنّ الّذى سألتُك عنه جِدٌّ منى ، مع أنّى واللّه ما أثِقُ بحقيقتِه ، إذ كان من غيبِ اللّه ، الّذى استأثر به . ولكنى أُحبُّ أن أسمعَ ما عندَك فيه ، فالنّفسُ طُلَعَة .

فقال المنجم :

- اعلم أيُّها الأمير ، أنَّه سوفَ يستقِرُّ ملكُك ، سعيدًا جَدُّك ، قاهرًا لمن عاداك ؛ إلاّ أن مُدَّتك فيه فيما دلّ عليه النظر ، تكونُ ثمانيةَ أعوامٍ أو نحوَها .

فأطرق هِشامٌ ساعة ، ثم رفعَ رأسَه ، وقال :

- يا ضَبّيّ ، ما أخوفَني أن يكونَ النّذيرُ كَلّمني بلسانِك . واللّهِ لو أنَّ هذه المدَّةَ كانت في سجدةٍ للّهِ تعالى ، لقلْت طاعة .

وكأنَّما النّذيرُ كلّمه بلسانِ الضّبّيّ ، فقد مات هِشامٌ بعد ثمانيةِ أعوامٍ من ولايتِه ، وقد خلّف الأندلسَ لابنِه الحكم .